

فوق التراب

قصّة بقلم عبد الهادي البكار

قصة ماسح الأحذية ، هذا الذي في ضيعتنا ، قصة ،
نضحك ، وتبكي .

الأحذية التي يلبسها أبناء ضيعتنا ، ما فيها حذاء تعلّق عليه
(البوبا) .. كل الأحذية بلون واحد ، لون التراب ، أو لون
يابس الطين .

والحكايات - كل الحكايات - التي رواها لي أبي عن رجال
الضيعة ، ليس فيها ما يُشير إلى ان واحداً تجرّأ فعمل ماسح
أحذية في ضيعة تجمع بين أحذية ابنائها رابطة واحدة ...
رابطة (اللون) !

ماسح الأحذية هذا الذي في ضيعتنا إذن ، ليس من ضيعتنا .
انا كلما مررت من السوق ، أراه جالساً في قرنة دكان (أبي
صالح) بائع لحم الجمل ، ساهماً يستر شعراته المتجمعات
بـ (لبّادة) ضاع بياضها لكثرة ما حطّ عليها من براغيث
خفيفة ، وذباب ثقيل الدم ! يرتدي سروالاً يلمع عند الركبتين
يشده إلى خصره زنار عريض ، أصله « لحشة » كان يلفها حول
رقبته الرفيعة ، التي تبرز من منتصفها الأمامي (تقاحة آدم)
فكانها منخر له ثان ! وأرى صدره المقعر ، الأسمر البشرة ،
فيه انخفاض ملحوظ عند عظم القص .. وقدميه الخافيتين
كأنهما ليستا حافيتين .. فقد تقرّ مدّ جلدهما ، فصار تربطه
بأحذية الآخرين من أبناء الضيعة رابطة واحدة .. رابطة (اللون) !
من شهر - وكان الجو قد بدأ يصحو - خرجت من
الدار ، عند العصر ، لأستنشق بعض الهواء النظيف في البساتين ،
فشاهدته يتوغّل بين الأشجار ، وحيداً مطرق الرأس ، واضعاً
كفيه في جيبي السروال .

وشعرت بدافع للحاق به .

مشى - ومشيت خلفه من بعيد - قدّر كيلومترين .
استقرّ على ضفة النهر ، الترابية ، وصار يخطّ خطوطاً مبهمّة
بإصبعه فوق التراب ..

وبعد ساعة ، أمضاها يخطّ ويفسد ما يخطّط ، قام وأخذ

وجهته بين الشجر ، شطر الضيعة .

ما كاد يغيب ، حتى هرولت إلى المكان الذي كان يجلس
فيه ، فإذا بصورة مشوّهة خارطة مخطوطة خط إصبع على
التراب ، كانت .. خارطة فلسطين ، بمحدودها ، قبل التقسيم !

★

بعد هذا الحادث ، بدأ ماسح الأحذية الاسمر الذي في ضيعتنا
يُشير فضولي ، وحزني .

قصده الباحة ، في قرنته ، عند دكان أبي صالح بائع لحم
الجل . كانت في عينه دمعة ، وأولاد كثيرون حوله مجتمعون ،
يرمونه بقشر الخيار .

لم يتكلم وقت وضعت قدمي على الصندوق ؛ بل انهمك
بحرك يديه ، ووجهه لا يرتفع عن الحذاء . قالت طفلة ، تشير
إليه ، بلحن اغنية معروفة في الضيعة :

- أخرس .. يا أخرس ..

فلم يلتفت .. ما سمع شيئاً ... وظل وجهه منكباً فوق
الصندوق .

ولما نقر قفا حذائي بإصبعه ، إشارة الانتهاء ، نقدته ربع
ليرة ، فأخذها غير مبتسم ، واكتفى بهزّ رأسه علامة الرضى ؛
وحين قرّب كفه من علبة خشبية ، مثبتة جنب الصندوق ،
ليضع فيها ربع الليرة ، رأيت خطوطاً محفورة على الحشب ..
كانت صورة مشوّهة خارطة فلسطين .. بمحدودها قبل التقسيم .

★

سألت اليوم أبا صالح بائع لحم الجمل ، عن ماسح الأحذية
الاسمر هذا الذي في ضيعتنا . فقال :

- من يافا جاء مع اللاجئين .. كان يحكي .. وخرس من
سنة ... ثم أصبح أينا حلّ يحرك إصبعه في خطوط مبهمّة .

★

أيها المارّون بضفة النهر الترابية في ضيعتنا ، لا تعبثوا بالخطوط
المشوّهة على التراب ، ففينا بعد من يحفظ صورة فلسطين ...
قبل التقسيم ! دمشق - دوما عبد الهادي البكار